العرب
الأحد 2020/10/11
السنة 43 العدد 11847

فيلم «المعضلة الاجتماعية» يكشف الوجه الرأسمالي القبيح للتكنولوجيا

وسائل التواصل الحديثة تهديد وجودي يقود المجتمعات إلى انهيار اجتماعي

وضع فيلم نتفليكس الوثائقي الجديد "ذا سوشيال دايلما" (المعضلة الاجتماعية) للمخرج جيف أورلوفسكي الإصبع على داء العصر المتمثل بوسائل التواصل الاجتماعي بطريقة فنية أبدعت في وصف الاغتراب البشري الذي تعيشه الإنسانية في ظل القصف والاعتداء التكنولوجي على ماهيتنا.

من يحمينا من وحش العصر

لندن – سلّط فيلم "المعضلة الاجتماعية" الضوء على قضية جوهرية تعانيها البشرية جمعاء خلف الشاشات، أين يتم إعادة تشكيل العقول بقوة لجعلها طيّعة للشركات التي تبيع المنتجات، ما يرغمنا على القلق فعليا بشأن كينونة الإنسان.

إذا كنت تتساءل، ما الذي يحدث الآن في العالم من حولنا؟ ولماذا تحوّل الكون إلى هذه الصورة السيئة؟، فعليك بمشاهدة الفيلم الوثائقي الأخير لنتفليكس "ذا سوشيال دايلما" (المعضلة الاجتماعية) كنقطة بداية جيدة للرد على تساؤلك. أقول "نقطة بداية" لأن الفيلم، كما سنرى، يعاني من عاملين مقيّدين رئيسيين أحدهما في تحليله والآخر في نهايته. ومع ذلك، فإن الفيلم يستكشف جيداً ملامح الأزمات الاجتماعية الكبرى التي نواجهها حاليًا والتي يجسدها كل من إدماننا للهاتف المحمول وقدرته على إعادة تشكيل وعينا وشخصياتنا.

يقدم الفيلم حالة مقنعة مفادها أن هذا ليس مجرد مثال على ملء نبيذ قديم في زجاجات جديدة، أو المقارنة بين الجيل الجديد وجيل الآباء الذين يطلبون من أطفالهم التوقف عن مشاهدة التلفزيون لوقت طويل. وسائل التواصل الاجتماعي ليست مجرد منصات معقدة تُعرض فيها الإعلانات فقط، لكنها نوع جديد من الاعتداء على ماهيتنا، وليس فقط على الطريقة التي نفكر بها.

ووفقًا لفيلم "المعضلة الاجتماعية"، تقف مجتمعاتنا الآن على شفا الانهيار، ونواجه ما يسميه العديد من الأشخاص الذين تمت مقابلتهم بـ"التهديد الوجودي" من الطريقة التي يتطور بها الإنترنت، وخاصة وسائل التواصل الاجتماعي، بهذه الوتيرة المتسارعة.

لكن جيف أورلوفسكي الذي قدم لنا مؤخرا فيلما وثائقيا على درجة من الأهمية كشف فيه أسرار ومصائب فيسبوك وتويتر، يحذرنا بثقة من استمرارية الانتقال بلا هوادة إلى تكنولوجيا تتحكم بنا، بينما نعتقد أنها تربطنا ببعضنا البعض.

ويكتب "في جميع الاحتمالات، لن تقوينا التكنولوجيا. بدلا من ذلك سنخضع أنفسنا لصفقة الشيطان عندما نكشف خصوصياتنا وأهواءنا وأمزجتنا بلا وعي، ونفرط بتماسكنا الاجتماعي تحت ضغط تلبية رغباتنا في الاتصالات السريعة".

ومثل العديد من الأفلام الوثائقية من هذا النوع، يرتبط الفيلم ارتباطًا وثيقًا بالمنظور المشترك للعديد من المشاركين في هذه المعضلة. وفي معظم الحالات، يشعر هؤلاء بخيبة أمل كبيرة، وهم المديرون التنفيذيون السابقون وكبار مهندسي البرمجيات من وادي السيليكون، لاسيما عندما يرون أن إبداعاتهم التي اعتزوا بها ذات يوم، مثل "غوغل"، و"تويتر"، و"فيسبوك"، ويوتيوب"، و"إنستغرام"، و"سنابتشات"، و"واتساب"، قد تحولت إلى معرض لوحوش فرانكشتاين.

ويتجسد ذلك في القصة الحزينة للرجل الذي ساعد في اختراع زر "أعجبني" على "فيسبوك". كان يعتقد أن إبداعه سيغمر العالم بالتوهج الدافئ، وينشر الحب مثل إعلان "كوكا كولا". ولكن في الواقع، انتهى الأمر بتأجيج مخاوفنا وزيادة حاجتنا إلى التقبل الاجتماعي، وعمل على زيادة معدلات الانتحار بين الفتيات المراهقات بشكل كبير.

وإذا كان عدد مشاهدات الفيلم الوثائقي يمثل أي مقياس، فإن خيبة الأمل من وسائل التواصل الاجتماعي تنتشر إلى ما هو أبعد من مخترعيها.

الأطفال فئران تجارب

وينقسم فيلم "المعضلة الاجتماعية" إلى ثلاثة فصول، على الرغم من عدم الإشارة إليها أثناء العرض. الأول، الذي يتعامل مع الحجة التي نعرفها بالفعل، وهي أن وسائل التواصل الاجتماعي تعد تجربة عالمية في تغيير علم النفس والتفاعل الاجتماعي الخاص بنا، وأطفالنا هم فئران التجارب الرئيسية في هذه العملية. جيل الألفية (أولئك الذين بلغوا سن الرشد في العقد الأول من القرن الحادي والعشرين) هم الجيل الأول الذي أمضى سنوات تكوينه مع "فيسبوك"، و"ماي سبيس". ثم تبعهم الجيل زد، الذي بالكاد يعرف عالماً لا توجد فيه وسائل التواصل الاجتماعي في مقدمته.

يقدم الفيلم قضية أن أبناءنا ليسوا مدمنين فقط على هواتفهم اللامعة وما يكمن خلف هذه الشاشات، ولكن يتم إعادة تشكيل عقولهم بقوة لجذب انتباههم ومن ثم جعلهم طيّعين للشركات التي تبيع المنتجات والأشياء.

لا يقتصر الأمر على خوض كل طفل أو مراهق معركة منفردة حتى يستطيع أن يظل مسيطراً على عقله أو عقلها ضد مهارات المئات من أعظم مهندسي البرمجيات في العالم. لأن المعركة الحقيقية هنا تكمن في أن تغيير ماهيتهم، وماهيتنا جميعاً، أصبح الآن في أيدي الخوارزميات التي يتم تنقيحها كل ثانية من كل يوم بواسطة تكنولوجيا الذكاء الاصطناعي. وتنبأ أحد الأشخاص الذين تمت مقابلتهم بأن وسائل التواصل الاجتماعي لن تفقد قدرتها على التلاعب بتفكيرنا وعواطفنا، لكنها ستستمر في التطوير من نفسها كثيرًا من أجل القيام بذلك.

يشرح جارون لانير، أحد رواد الحوسبة في الواقع الافتراضي، الفكر الذي تتبناه "غوغل" وبقية هذه الشركات الرقمية، وهو "التغيير التدريجي الطفيف وغير المحسوس في سلوكك وإدراكك. وهذه أيضًا هي الطريقة التي تكسب بها هذه الشركات أموالها، من خلال تغيير ما تفعله، وما تعتقده، وما تكون عليه في الأساس".

تحقق هذه الشركات أرباحاً كبيرة من التنبؤات حيث تتوقع ما ستفكر فيه وكيف ستتصرف حتى يتم إقناعك بسهولة أكبر بشراء ما يريد المعلنون بيعه لك. ومن أجل عمل هذه التنبؤات العظيمة، كان على هذه الشركات أن تجمع كميات هائلة من البيانات عن كل واحد منا ضمن ما يسمى أحيانًا "برأسمالية المراقبة".

وعلى الرغم من أن الفيلم لا يوضح ذلك تمامًا، إلا أن هناك دلالة أخرى على ذلك، وهي أن أفضل صيغة يتبعها عمالقة التكنولوجيا لتحقيق أقصى قدر من التوقعات هي أنه "بالإضافة إلى معالجة الكثير من البيانات التي تخصنا، يجب عليهم بشكل تدريجي معالجة تميزنا وتفردنا وغرابة أطوارنا حتى نصبح سلسلة من النماذج الأصلية".

ومن ثم، فإن عواطفنا ومخاوفنا وانعدام الأمن والاحتياجات والرغبات الشديدة، يمكن بسهولة قياسها واستغلالها من قبل المعلنين.

تتاجر هذه الشركات الجديدة في مستقبل البشر، تمامًا كما تتاجر شركات أخرى منذ فترة طويلة في مستقبل النفط، كما قالت شوشانا زوبوف، الأستاذة الفخرية في كلية إدارة الأعمال بجامعة هارفارد "هذه الأسواق جعلت شركات الإنترنت أغنى الشركات في تاريخ البشرية".

أما الفصل الثاني، فيشرح أنه عندما يتم اقتيادنا داخل هذه الغرف الرقمية، نفقد المزيد والمزيد من الإحساس بالعالم الحقيقي وببعضنا البعض، وتتآكل قدرتنا على التعاطف والتفاهم. نعيش في عوالم معلومات مختلفة، تم اختيارها لنا من خلال الخوارزميات التي تتمثل مهمتها الوحيدة في كيفية زيادة اهتمامنا بمنتجات المعلنين لتحقيق أرباح أكبر لعمالقة الإنترنت. أي شخص قضى أي وقت على وسائل التواصل الاجتماعي، وخاصة منصة مثل تويتر، سوف يشعر أن هناك حقيقة في هذا الادعاء، لاسيما وأنه لن يجد أي قيم أو مبادئ مثل التماسك الاجتماعي والتعاطف والأخلاق في الخوارزمية.

وهناك مشكلة أخرى أشار إليها أحد الأشخاص الذين تمت مقابلتهم وهي أن "الحقيقة مملة". حيث يفضل الناس مشاركة كل ما هو مثير وجديد وغير متوقع وصادم. وأظهرت الأبحاث أن المعلومات الخاطئة من المرجح أن تنتشر على منصات التواصل الاجتماعي أكثر بـ6 مرات من المعلومات الحقيقية.

وبينما تعمل الحكومات والسياسيون عن كثب مع شركات التكنولوجيا هذه – وهي حقيقة موثقة جيدًا فشل الفيلم تمامًا في استكشافها – أصبح حكامنا في وضع أفضل من أي وقت مضى للتلاعب بتفكيرنا والتحكم في ما نفعله. حيث يمكنهم نشر خطاباتهم السياسية بسرعة أكبر وأشمل وأرخص من أي وقت مضى.

لكن هذا الجزء من الفيلم هو الأقل نجاحًا. صحيح أن مجتمعاتنا ممزقة بسبب زيادة الاستقطاب والصراع، وتزايد الشعور بالقبلية، لكن الفيلم يشير إلى أن جميع أشكال التوتر الاجتماعي – بداية من نظرية مؤامرة بيتزاغيت وحتى حركة "حياة السود مهمة" – هي نتيجة للتأثير الضار لوسائل التواصل الاجتماعي.

وعلى الرغم من أنه من السهل معرفة أن المضللين ينشرون معلومات مضللة، إلا أنه من الصعب للغاية التأكد من ما هو صحيح وما هو خطأ في العديد من مجالات الحياة الأخرى. يشير التاريخ الحديث إلى أن نتخذ المعايير الصحيحة استناداً لما تقوله الحكومات، أو مثلاً مارك زوكربيرغ، أو حتى الخبراء. ربما يكون مر وقت طويل منذ أن أخبرنا الأطباء أن السجائر آمنة، لكن تم إخبار الملايين من الأميركيين قبل بضع سنوات فقط أن المواد الأفيونية آمنة كذلك، إلى أن اندلعت أزمة إدمان المواد الأفيونية في جميع أنحاء الولايات المتحدة.

ورغم كل العوائق، فإن الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي لهما جانب إيجابي لا شك فيه عند استخدامهما ببساطة كأداة، كما يقول تريستان هاريس، خبير أخلاقيات التصميم السابق في "غوغل". يعطي هاريس مثالاً على قدرته على استدعاء سيارة أجرة على الفور بضغطة زر. هذا، بالطبع، يسلط الضوء على الأولويات المادية لمعظم الشركات الرائدة في وادي السيليكون.

لكن صندوق الأدوات الموجود في هواتفنا، المليء بالتطبيقات، لا يرضي فقط شغفنا بالراحة والأمان المادي. لكنه غذى أيضًا الرغبة في فهم العالم ومكاننا فيه، وقدم أدوات لمساعدتنا على القيام بذلك.

ساعدت الهواتف الناس العاديين على تصوير ومشاركة بعض الأحداث والمشاهد التي شاهدها ذات مرة فقط حفنة من المارة. تمكّنا جميعًا من رؤية ضابط شرطة أبيض يركع على رقبة رجل أسود لمدة 9 دقائق، بينما الضحية يصرخ بأنه لا يستطيع التنفس، حتى زهقت روحه. ثم استطعنا بعد ذلك الحكم على قيم وأولويات قادتنا عندما يقررون القيام بأقل مجهود ممكن لمنع تكرار مثل هذه الحوادث مرة أخرى.

لقد أوجد الإنترنت منصة لم يستطع من خلالها المديرون التنفيذيون السابقون في وادي السيليكون فقط فضح وكشف حقيقة ما تخطط له عائلة مارك زوكربيرغ، ولكن أيضًا مكّنت جندية في الجيش الأميركي، مثل تشيلسي مانينغ، من فضح جرائم الحرب في العراق وأفغانستان، وهكذا. هل يستطيع أحد المطلعين على تكنولوجيا الأمن القومي مثل إدوارد سنودن، الكشف عن الطريقة التي يتم بها مراقبتنا سراً من قبل حكوماتنا.

سمحت الاكتشافات الرقمية التكنولوجية لشخص ما مثل جوليان أسانغ بإنشاء موقع، ويكيليكس، الذي قدم لنا نافذة على العالم السياسي الحقيقي – نافذة من خلالها يمكننا أن نرى قادتنا يتصرفون كالمختلين عقليا أكثر من كونهم عاملين في المجال الإنساني. نافذة تبيّن أن هؤلاء القادة يقاتلون بكل ما أُتوا من قوة الآن لإغلاقها من خلال تقديم أسانغ للمحاكمة.

يتجاهل فيلم "المعضلة الاجتماعية" كل هذا للتركيز على مخاطر ما يسمى بـ"الأخبار الكاذبة". ويصور مشهداً دراماياً يشير إلى أن أولئك الذين انجذبوا وراء المعلومات ومواقع المؤامرات ينتهي بهم الأمر بالنزول إلى الشارع للاحتجاج – وعندما يفعلون ذلك، كما يصور الفيلم، لن ينتهي الأمر بهم إلى مرحلة جيدة.

التطبيقات التي تسمح لنا باستقلال سيارة أجرة أو التنقل في طريقنا إلى وجهة ما هي أدوات مفيدة بلا شك. لكن القدرة على اكتشاف ما يفعله قادتنا حقًا – سواء كانوا يرتكبون جرائم ضد الآخرين أو ضدنا – هو الأكثر فائدة.

في الواقع، إنه أمر حيوي إذا أردنا إيقاف هذا النوع من السلوكيات المدمرة للذات التي يهتم الفيلم بمناقشتها، وكذلك التي لم يهتم بمناقشتها، مثل تدميرنا لأنظمة الحياة على كوكب الأرض (وهي قضية لم يمسها الفيلم).

نافذة صغيرة على الواقع

لا يعني استخدام وسائل التواصل الاجتماعي بالضرورة أن يفقد المرء اتصاله بالعالم الحقيقي. وبالنسبة لفئة قليلة من المستخدمين، عمقت وسائل التواصل الاجتماعي فهمهم للواقع. أما بالنسبة لأولئك الذين سئموا من تصوير العالم الحقيقي لهم من قبل مجموعة من الملياردرات وشركات الإعلام التقليدية، وفرت منصات التواصل الاجتماعي فرصة لاكتساب نظرة ثاقبة على واقع كان لمخوبًا من قبل.

المفارقة، بالطبع، هي أن شركات التواصل الاجتماعي الجديدة هذه لا تقل في شيء عن أصحاب المليارات، ولا تقل جوعًا للسلطة، ولا أقل تلاعبًا من وسائل الإعلام القديمة. يتم استخدام خوارزميات الذكاء الاصطناعي التي يتم القيام بتعديلها بوتيرة متسارعة – تحت عنوان "الأخبار المزيفة" – في توجيه هذا السوق الجديد نحو الفضح وكشف الأسرار، ونحو صحافة المواطن، ونحو الأفكار المعارضة.

جيف أورلوفسكي:

لن تقوينا التكنولوجيا، سنخضع أنفسنا لصفقة الشيطان عندما نكشف خصوصياتنا وأهواءنا وأمزجتنا بلا وعي

لا يحدث الكثير من الاستقطاب الاجتماعي الحالي والصراع، كما يقترح الفيلم، بين أولئك المتأثرين "بالأخبار المزيفة" لوسائل التواصل الاجتماعي وأولئك المتأثرين بـ"الأخبار الحقيقية" لوسائل الإعلام المؤسسية. ولكنه يحدث، من ناحية، بين أولئك الذين تمكنوا من إيجاد فرص للتفكير الانتقادي والشفافية في وسائل الإعلام الجديدة، ومن ناحية أخرى، بين أولئك المحاصرين في النموذج الإعلامي القديم أو أولئك الذين لم يتمكنوا من التفكير بشكل انتقادي بعد كل هذه السنين من أعمارهم وهم يتابعون وسائل الإعلام المؤسسية، ولذلك يتم استدراجهم بسهولة نحو شبكات المؤامرات عبر الإنترنت.

وعلى الرغم من كل مخاوفه بشأن "التهديد الوجودي" الذي نواجهه، لم يقدم الفيلم فائدة جيدة عما يجب حقاً تغييره – بصرف النظر عن الحد من مشاهدة أطفالنا لموقع "يوتيوب"، و"فيسبوك". هذه النهاية لا تتناسب مع الأحداث المكتظة التي سبقتها.

وهذه "النظرية المعيبة" غير المسماة هي الرأسمالية. توصلَ الأشخاص الذين تمت مقابلتهم في الفيلم إلى استنتاجهم المثير للقلق وهو أننا على وشك الانهيار الاجتماعي، ونواجه "تهديدًا وجوديًا"، لأنهم عملوا داخل بطون أكبر وحوش الشركات على هذا الكوكب، مثل "غوغل" و"فيسبوك".

> **شركات التكنولوجيا تحقق أرباحا من خلال التنبؤ بما ستفكر فيه حتى يتم إقناعك بشراء ما يريد المعلنون بيعه لك، ومن أجل ذلك تجمع البيانات عن كل واحد منا ضمن ما يسمى «برأسمالية المراقبة»**